جماليات التناص ودلالاته :

توطئة:

تكمن جمالية التناص في تلك العلاقة الرابطة بين النص و المتلقي، هذا الأخير الذي تسيطر عليه المعرفة الخلفية، فيجد نفسه مشدوداً إلى النص شداً، هذا النص الذي بدوره يعتبر رسالة معرفية تواصلية في إطار مفتوح على جميع الاحتمالات وعلى جميع التأويلات.

وهذه الجمالية التناصية تأتي لإثارة انتباه المتلقي ، بل توقظ فيه التأويل والاستنتاج والاستنباط، وبالتالي تدفعه إلى إنتاج النص من جديد، أو على الأقل تدفعه للمشاركة في بناء نسق جديد للنص الأصلي، فالتناص يزرع ويؤسس هذا الاندماج بين النص والمتلقي*، فهو "ليس مجرد لعبة لغوية مجانية، وإنما له جماليات عدة ينهض بها في مجال النصوص الأدبية "[1]. كيف لا و هو بذلك يمزج بين النص بمياهها جوفية ، ليتشرب من أنهارها، ويضمها بين يديه ، جاعلاً النص تركيبة فسيفسائية وامتصاصاً وتحويلاً لنصوص أخرى ، يلتقي فيها الأدب بالتاريخ والدين والأسطورة والتراث والفلسفة ...

وللتعرف أكثر على جماليات التناص ، ارتأيت أن أعرج على عدة نقاط في هذا الجزء ، هي :

1. إثارة الذاكرة وإحيائها
2. تنوع المرجعيات ، وإنتاج الدلالة الجديدة
3. إثراء اللغة الحاضرة باللغة التراثية
4. الإيجاز وتكثيف الدلالة

* عبر هذا الاندماج والتفاعل بين النص والمتلقي أعلن رولان بارت في مقالته 1968، **موت المؤلف** وميلاد القارئ.

[1] - جمال مباركي : التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، ص: 309.

1. إثارة الذاكرة وإحياؤها :

يعمل التناص على بث الحياة من جديد في الموروث، وتقديمه بشكل مغاير يتناسب ومعطيات النص الحالي ، فيحول المادة المعرفية إلى عمل فني يزيد النص جمالية، مما يؤدي إلى الوصول إلى لذة النص وتذوقه من طرف المتلقي ، فالنصوص الغائبة تشع كنجمات ساطعات في سماء حالكة ، مسترجعة و مثيرة ذلك المخزون الذي يدعى "الذاكرة"، هذه الذاكرة التي تربط بين الماضي و الحاضر ، وبين الحاضر والمستقبل، وتحافظ على تواصل الأجيال و استثمار ثقافتها المختلفة.

وبتوظيف الكوني لتقنية التناص نجده قد حاور هذه الذاكرة حيث أعاد النص الغائب وفق صياغة جديدة، وعلى نحو مغاير يحذف منه، ويضيف إليه[1].

فالنص عنده ممتد إلى سنين طويلة يستطيع القارئ أن يدرك من خلاله ذاكرة أمة أو تاريخ شعب اسمه **"الطوارق"**.

فالكوني في تبره وفزاعته استطاع أن يحيي تاريخ وحضارة وتراث الطوارق، مفتخراً ببطولات أبطاله ، وبإنجازات شعبه حيث وظف تاريخ الطوارق ومقاومتهم للاستعمار الإيطالي والفرنسي، يقول الكوني :"عندما أقبل أمود استقبلناه بمهاري الحرب، وأعطيناه فرسانا لا يخطئون الهدف"[2].

كما أنه استطاع توظيف تراثهم من عادات وتقاليد، رأى فيها الأصل والمنبع ، رأى فيها التميز والإبداع، حيث يقول الكوني :"وهم يتوجون رؤوسهم بالعمامات الفخيمة الزرقاء"[3].

[1] ينظر : محمد بنيس : ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، ص:253.
[2] إبراهيم الكوني : التبر ، ص: 12.
[3] نفسه ، ص: 13.

ويقول أيضـــــاً :" أمـــر بإعـــــداد الشـــــاي"[1].

فالعمامات الزرقاء، وتحضير الشاي من تراث الطوارق الأصلي، والكوني يدافع على هذا التراث من خلال توظيفه في أكثر من سياق.

كما استحضر الكوني هذه الذاكرة من خلال تلك النماذج التي ساقها في نصوصه، والتي تحمل بعداً دينياً عقائدياً صوفياً من خلال وصايا وحكم الشيخ موسى الذي اعتبره : "يقرأ الكتب، ويتلو القرآن، ويؤم الناس في الصلاة"[2].

ومن خلال ذكره لمصطلحات الصوفية ولأحوالهم ومقاماتهم، كما وظف الكوني زيارة الأضرحة والقربان لها، وإقامة الرقص عندها يقول :" صار النداء أغنية حقيقية تذكر بمطلع أغاني الشجون التي تسميها شاعرات القبائل أساهغ"[3].

ويقول أيضاً :" جاء من صلب بشارة استعصت رموزها على ترجمان اللسان ،فيشتد الفيض، ويجد هؤلاء أنفسهم أسرى وجد لم يعرفوه حتى في الزمان الذي عصفت فيه بأسماعهم أغاني الأشجان"[4].

2. تنوع المرجعيات، وإنتاج الدلالة الجديدة :

إن من جــمالية التناص أنـــــه يسمـــح للقـــارئ بمعـــرفة مرجعيـــة الكتابة لدى الكاتـــب ، حيث يحدد لنا هذا التعدد المـــرجعي الذي هو بالأساس تداخل النص مع عوالم محيطـــــة ، فالكتابة امتداد لنصوص سابقة غائبة، ويمكن تقسيم المرجعية لدى إبراهيم الكوني إلى عدة مرجعيات، أهمها :

---

[1] إبـراهيم الكوني : التبـــر ، ص: 18.
[2] نفسه ، ص: 22.
[3] إبـراهيم الكوني : الفزاعة ، ص: 37.
[4] نفسه ، ص: 52.

- المرجعية التاريخية :

حيث يحاور الكوني في نصيه التبر والفزاعة تيار التاريخ، وهاذين النصين هما مرآة عاكسة لتلك الأحداث والوقائع، بل النص عند الكوني هو بصمات لتاريخ الطوارق، حيث الاستعمار، والمقاومة، والصحراء، يقول الكوني :" جاءت الأنباء بانكسار المقاومة في الحمادة أيضاً... باستشهاد الوالد ،قيل بأنه قاوم ببسالة، بل إن أهل الصحراء نظموا قصائد بعدها تمجيداً لبطولته ،ربما لأنهم لم يتوقعوا من رجل مزواج... أن يسطر المآثر في مقاومة الطليان"[1].

فهو بهذا التناص يجعل القارئ يسترجع تـــاريخ المنطـــقة ، ليمسح عنه الغبار، بل ليعايشه ، ويعيـــــد إلينا تلك الحقبة الاستعمارية المريرة التـــــي جـــوّعت وأفقـــــرت وشـــرّدت أهل الصحراء.

فنص الكوني إشعاعات تضيء على مرجعية التاريخ محاولة تدوينه وتأريخه، بل وداعية إلى قراءته مرة أخرى.

- المرجعية التراثية :

الكوني في نصيه "التبر والفزاعة" يسرد ويحكي تراث أجداده، بل يحاوره ويشكل منه رصيداً معرفيا يغرف منه كلما استدعت الكتابة ذلك، فها هو في "التبر" يكتب عن قصة إنسان عشق أبلقاً، وأراد العشق معه في الصحراء، ومن خلال هذا العيش يدعو إلى التمسك بتراث

[1] إبـراهيم الكوني : التبـــر ، ص: 76.

الأجداد، والمحافظة عليه، بل ويجعل من ذلك ثورة في الكتابة ليشع به نصوصه، يقول الكوني :" الأبلق ليس دابة... الأبلق هو الأبلق"[1].

ويقول :" أكثر ما يثير سخرية الأهالي في النجع أن المهري الصغير يتجول معه بين المضارب... يهرول وراءه حتى عندما يذهب للسهر في ليالي السمر في العراء، ولا ينام إلا عندما يهجع هو للنوم...يستسلم لتمسحات الجمل ومداعبته... يقول :" الحيوان خير صديق... الحيوان أفضل من الإنسان"[2].

- المرجعية الدينية :

نصا الكوني " التبر و الفزاعة " يخضعان للمرجعية الدينية ، هذه الأخيرة التي ساهمت في إثراء لغة النص، بل وزادت من مدلولاته وتأويلاته ، فها هو الكوني يستدل بالحديث الشريف في قوله :" وقد اشتهر عنه ترديده لحديث الرسول :"أحب إلي في دنياكم ثلاث : النساء، والطيب، وقرة عيني الصلاة"[3].

كما أنه يستدعي معنى الآيات الكريمة :

" فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا "[4].

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "[5]

" وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ "[6]

في قوله في رواية التبر :

"اصبر، اصبر ، الحياة هي الصبر"[1].

---

[1] نفسه ، ص: 22.
[2] إبـراهيم الكوني : التبـــر ، ص: 22.
[3] نفسه ، ص: 70.
[4] - سورة المعارج ، الآية رقم : 05.
[5] - سورة آل عمران ، الآية رقم:200 .
[6] - سورة لقمان ، الآية رقم :17.

وبالتالي، هذه المرجعية الدينية تزيد النص الروائي قدسية وارتقاء.

- المرجعية الأسطورية :

بنوع من الدهشة واللامعقول يشد توظيف الأسطورة مخيلة المتلقي ويجبره على متابعة الحكي، لكي يستنبط في الأخير الحكاية ويفهمها، وبما أن الغرابة هي جوهر الأسطورة فإن الإحالة إلى الأسطورة هي في الوقت نفسه إحالة لهذه الغرابة، فمثلاً توظيف الكوني لأسطورة الآلهة تانيت في رواية التبر يدعو القارئ إلى تتبع أغوار وأسرار هذا النص ليكتشف في الأخير أنها سبب تنامي السرد، ومحفز لسير الأحداث، بل وتخلق في القارئ أفق انتظار، يقول الكوني على لسان العرّافة :" قالت العرّافة :

- قلت مثلث ؟ هل نذرت شيئاً للآلهة تانيت ؟

تذكر النذر، تذكر الولي، تذكر قاعدته المثلثة الأضلاع... هل إشارة من الآلهة تانيت ؟ تلك علامتها... هي في كل شيء وفي كل مكان"[2].

3. إثراء اللغة الحاضرة باللغة التراثية :

تعتبر اللغة كائناً ينمو كلما شرب من مياه متعددة المنابع، ويعتبر التناص من هذا الجانب الأداة والوسيلة التي تشرب بها اللغة فتنمو، وذلك لكونه تقنية تسمح للنص أن يمتص نصوصاً أخرى، تفرض هي الأخرى سحر لغتها على لغة نص الكاتب، وبذلك تزيدها ثراء، وذلك ما سنوضحه في نقطتين هما :

[1] إبـراهيم الكوني : التبـــر ، ص: 39.
[2] إبـراهيم الكوني : التبـــر ، ص: 78.

* **اللغة الأدبية :** إن تناص الكوني مع النصوص الأدبية جعله يغترف منها ألفاظه، ويستنبط منها معانيه، ليساهم -بقصد أو بغير قصد- في إثراء لغته، وهذا ما يتضح في سياقات نصيه، خاصة عند توظيفه لمصطلحات بلغة أمازيغية، كقوله في الفزاعة :

"إيخركن يقليد آنهي"[1].

كما نشهد هذا الثراء في توظيفه للأسماء، سواء كانت أسماء الأماكن كـ :"أدرار، غات، غدامس، كانو، آير ، تمبكتو" أو أسماء الأشخاص كـ :"أماسيس، آهلوم،أخنوخن ، آنهي، إيمسوان"، فهذا الدخيل على العربية هو في الوقت نفسه إثراء لها.

* **اللغة التراثية :** لم يتوقف الكوني في توظيفه للغة على المعتاد، بل راح يوظف التراث من خلال مصطلحات وملفوظات عامية، ومثال ذلك :

"اللي رجله في النار لا يسمع"[2].

كما أن توظيفه لملوفظات ومسميات الواقع المعاش أدى به إلى إثراء اللغة ،وجعلها لغة إيحائية رامزة، ومثال ذلك : " الودّان، البرسيم، الترفاس.... الخيمة، الشاي"، يقول الكوني مثلاً :" إذ كان يقرفص أمام خيمته"[3].

ويقول في موضع آخر :

"لم نأكل سوى البرسيم طوال الأيام الماضية"[4].

ويقول في موضع آخر :

"جنى بضع قطع من الترفاس"[5].

فبهذا الانزياح اللغوي يخرج النص من مجاله النفعي إلى مسار جمالي يثري اللغة، وينميها، ويزيدها سحراً.

[1] إبـراهيم الكوني : الفزاعة ، ص: 12.
[2] إبـراهيم الكوني : التبـــر ، ص: 39.
[3] نفسه ، ص: 71.
[4] نفسه ، ص: 88.
[5] نفسه ، ص: 36.

4-الإيجاز وتكثيف الدلالة :

اعتنت البلاغة العربية القديمة بفكرة الإيجاز والحذف، بل واعتبرت ذلك من حذاقة اللسان وتمرسه على البيان، فالفصيح من أوتي الإيجاز مع إيصال الفكرة على أتم وجه، والرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلم، التي اتسمت باختصار اللفظ وكثافة المعنى، (قلة الدال وكثرة المدلول).

والتناص كتقنية حديثة يدعو إلى هذا من خلال توظيف النص لتلك الإشارات التي تشع دلالة وكثافة.

وهذا الإيجاز يعتبر من جماليات التناص، حيث يجعل النص قارة للنصوص، ورؤية للعالم بمنظار موجز، فيه الحذف والرمز.

ومن إيجابيات الإيجاز أيضاً أنه يدفع القارئ إلى استقصاء الخبر، في هذا الاستقصاء بحث وارتباط وثيق بالنص.

والكوني في نصيه وظف هذا الإيجاز من خلال توظيف توظيفه للتناص، ويكمن ذلك أحياناً في توظيف لفظة واحدة نستطيع من خلالها أن نفتح أبواباً لمدارات واسعة، ومثال ذلك في التبر:

"فعاش رهين الرقص والوجد والشوق المجهول، وأحس أن الأبلق البهي يشاطره نفس الأحاسيس الشجية حتى بلغا الحلقة"[1].

فلفظة "الوجد" تسبح بنا في عوالم الصوفية وطرقهم وأفكارهم، بل تشدنا إلى البحث عن هذا التوجه الديني الإسلامي الذي يدعى "الصوفية".

[1] إبـراهيم الكوني : التبـــر ، ص: 15.

وأيضاً يكون الإيجاز بتوظيف الرمز، هذا الأخير الذي يفجر النص بدلالات واسعة، حيث يرمي به بين الحقيقة والخيال، وبين الواقع والأسطورة، ويصبح النص بذلك كما قال تودوروف :" خطاباً متعدد القيم"[1].

ومثال ذلك في نص الكوني توظيفه "للتبر" وهو رمز لكل ما خالف عرف الصحراء، فهو منبوذ، بل ملعون صاحبه، يوجب العقوبة التي تصل أحياناً إلى العدم (الموت).

يقول الكوني :

" قدّم له الصرّة، وقال :

- لا تعتبر هذا رشوة، إنه سيقيك شر الحاجة حتى تمر المجاعة.

قال أوخيد :

- لا أعتقد أني سأحتاج إليه، يقال في قبيلتنا إنه يجلب اللعنة"[2].

وبهذا نستطيع أن نقول بأن للتناص جماليات تجعل النص صدراً رحباً، وبحراً لجياً، لنصوص أخرى، تلتقي فيه و تتلاقح، لتلد نصاً يحاكي الإبداع والبقاء.

[1] تزفيطان تودوروف: الشعرية ، ترجمة : شكري المبخوت و رجاء بن سلامة، دار توبقال ، المغرب ، ط2، 1990، ص: 40.
[2] إبـراهيم الكوني : التبـــر ، ص: 125.